لفظتا (الصديق والصاحب) ودلالتهما في القرآن الكريم

د. إبراهيم عبد الله الغامدى
كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى – مكة المكرمة

مقــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، معلم البشرية، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وبعد:

فلا شك أن علماء العربية أولوا دراسة الألفاظ اللغوية عناية كبيرة، وألفاظ القرآن الكريم عناية خاصة فاللفظ القرآني معجز ودلالته دقيقة جداً فألفاظه "لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم"[1].

وكتاب الله بلا ريب دقيق "في اختيار ألفاظه، وانتقاء كلماته... فإذا صار اللفظ معرفة كان ذلك بسبب، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، كذلك إذا كان اللفظ مفرداً كان ذلك لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعاً كان لحال يناسبه، وقد يختار كلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في الدَّلالة.."[2].

ولفظتا الصَّديق والصَّاحب من الألفاظ القرآنية، الملازمة لحياة العرب الاجتماعية، فالصَّداقة والصُّحْبة من أهم الروابط الاجتماعية بين الناس، ولا يخلو منهما إنسان لأنهما مرتبطتان بالحياة، وهذه "الرابطة إما القرابة وهي أخصها، أو أخوة الإسلام وهي أعمها، وينطوي في معنى الأخوة والصَّداقة و الصُّحْبة... ولكل واحدة من هذه الروابط درجات... وكذلك الصُّحْبة تتفاوت درجاتها، فحق الصُّحْبة في الدرس والمكتب آكد من حق الصُّحْبة في السفر"[3].

فالصَّديق الصادق القريب من الله، لا ريب في أن له نفعه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يقف معك في الصعاب بماله وبدنه ودمه إن كان وفياً يأمرك بالمعروف، وينهاك عن المنكر، وبعد موتك يذكرك فيدعو لك ويتتبع احتياجات أهلك من بعدك.ومن هنا جاءت

أهمية الصَّديق؛ لأن الصَّداقة تمثل حالة من حالات التعاون بين بني آدم، ونقاء فؤاد الصَّديق من أسباب استمرار الصَّداقة الحقَّة، وهي التي أشار إليها المولى عز وجل في قوله: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

ويهدف البحث إلى تتبع دلالة هاتين اللفظتين في القرآن الكريم وتأصيلهما، وبيان استخدامهما في العربية بشكل عام، وفي لغة القرآن بشكل خاص. والذي دفعني إلى تتبع دلالة اللفظتين أمران:

الأول: لأنهما من ألفاظ كتاب الله، وفي اعتقادي الجازم أنه ما من كلمة في القرآن الكريم إلا ولها إعجاز دلالي، خاصة أنها مرتبطة بسياق يحدد دلالتها التحديد الدقيق.

والثاني: لأهمية هاتين المفردتين في الحياة البشرية بشكل عام، وخصوصيتهما في حياة المسلمين والعرب بشكل خاص، فالإسلام اهتم بالصَّداقة اهتماماً كبيراً؛ لأن العلاقة الحميمية تترك أثراً على كثير من جوانب الحياة، فعلاقة الألفة والمحبة إذا كانت مبنية على أساس ديني واضح وهو الحب في الله، بعيداً عن المنافع الدنيوية سيكتب لها البقاء لا ريب، أما إذا كانت مبنية على تبادل المنافع فهي زائلة لا محالة.

والإنسان أياً كان لا يطيق العيش بمفرده؛ لأنه عضو في مجتمع بشري، فهو اجتماعي بطبعه، فيحتاج إلى من يستشيره ويحفظ سره. وبعض الأصدقاء الأوفياء أقرب للإنسان من قرابة النسب، والإسلام حث على مثل هذه الصَّداقة بدليل ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من أدلة تحث على هذه الرابطة الاجتماعية النبيلة علاوة على ما أورده العلماء من نصوص شعرية ونثرية سمت بدلالة الكلمتين.

إلا أن الصَّداقة بمعناها الحقيقي في زمننا هذا خاصة، وعبر الأزمان "مشوبة بالحسد، مكدرة بالحقد، مهددة دائماً بالخيانة"[5]، ومرد هذا كله إلى البعد عن الإيمان الحق، وعدم الصدق، والنظرة إلى الصداقة بنظرة المنفعة لا غير، وليس بالنظر إلى دلالتها السامية.

ودلالة هاتين اللفظتين تقاربت عند العامة، بل حتى في بعض أوساط المثقفين، وأشكل الفرق بينهما، فَرُمْتُ إلى أن أخصَّهما بدراسة لغوية أسلوبية؛ لأقف على الفروق الدلالية بين اللفظتين لبيان حقيقة الدَّلالة كما جاءت في لغة العرب بوجه عام، وفي كتاب الله بوجه خاص، وذلك من خلال توضيح دلالة السياق القرآني الذي وردت فيه الكلمتان.

وقد وردت مشتقات مادة (ص.د.ق) في القرآن الكريم في مائة وخمسة وخمسين موضعاً، ولم ترد كلمة صديق بالمعنى المراد إلا في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[6].

الثاني:قوله تعالى:﴿ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[7].

أما بقية المواضع فوردت بمعنى الصِّدق والصَّدَقة، وهذه المواضع ليست موطن الدراسة؛ لأن البحث معنيٌّ بتلمس الفروق الدلالية بين كلمتي (صديق) و (صاحب) كما سبق أن ذكرنا.

ومادة **(ص.د.ق)** كيفما دارت وتصرفت تدل على القوة، يقول ابن فارس: "الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء، قولاً وغيره... والصَّداقة مشتقة من الصِّدق في المَودَّة، يقال: صديق للواحد والاثنين، وللجماعة وللمرأة..."[8].

أما اشتقاق هذه المادة فكما يقول ابن منظور: "إن الصَّديق مشتق من الصِّدق أو من الصَّدق. يقال رمحٌ صَدْق، أي صلب، والصَّداقة والمُصَادقة: المخالَّة، وصَدَقه النَّصيحة والإخاء: أمحضه له، وصادقته مُصادقة وصِداقاً: خالَلْتُه، والاسم: الصَّداقة. والصَّداقة: مصدر الصَّديق، واشتقاقه أنه صَدَقه في المَودَّة والنَّصيحة، والصَّديق: المصادق لك، والجمع: صُدَقاء، وصُدْقَان، وأَصْدِقاء، وأصَادِق. فلان صُدِّيقي، أي أخص أصْدِقائي، وصُغِّر على جهة المدح"[9] "وهو خلتي، أي: صديقي"[10].

ولفظة صَدِيق على زنة فَعِيل، واسم الفاعل منها: صادق، وهذا اللفظ من الألفاظ المشتركة التي يستوي فيها المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع. وقد جاءت كلمة (صديق) في القرآن مفردة، وجاءت مضافة إلى ضمير الجمع، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل في موطنه من البحث.

وعرف أبو هلال الصَّداقة بقوله:"اتفاق الضمائر على المَودَّة، فإذا أضمر[11] كل واحد من الرجلين مودة صاحبه، إضمار(6) باطنه فيها كظاهره، سمُيّا: صديقين، ولهذا لا يقال: الله صديق المؤمن، كما أنه وليه"[12].

وقيل إن الصَّداقة: "صِدْق الاعتقاد في المَودَّة، وذلك مختص بالإنسان دون غيره"[13].

"ورجل صَدْق، أي ذو صلاح، لا صدق اللسان. ألا ترى أنك تقول: (ثوب صَدق) و (خمار صدق)، أي: ذو جودة"[14].

أمّا حدُّ الصَّداقة عند أهل السلوك فهي "استواء القلب في الوفاء والجفاء، والمنع والعطاء، وهي من مراتب المحبة..."[15]. والصَّداقة ليست درجة واحدة، بل تتمثل في خمس درجات، هي باختصار[16] :

1) الصفاء، وعلامته: بغض النفس والهوى، ومخالفة المقصود، وترك الشهوات بعين

الرضا، والخروج بالكلية من حب الدنيا.

2) الغيرة، فذو المروءة في هذا المقام مُحِبٌّ غيور.

3) الاشتياق، وفي هذا المقام ترتفع ألسنة نيران الشوق والرغبة.

4) ذكر المحبوب، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

5) التحير.

وقد قيل في الصَّديق أقوال كثيرة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

"سئل روح بن زنباع عن الصَّديق فقال: لفظٌ بلا معنى، أي: هو شيء عزيز، ولعزته كأنه ليس بموجود، ولو جهل معنى الصَّديق، لجهل معنى الصَّاحب، ولو جهل معنى الصَّاحب لجهل معنى الخليل..."[17].

والذي يبدو لي في قوله: إن الصَّديق لفظ بلا معنى، أي: أن جميع الدلالات لا تفي بهذا المعنى السامي، فهذا اللفظ من الألفاظ التي تقصر عنها المعاني.

وسئل أرسطاطاليس الحكيم: "من الصَّديق؟ قال: إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك"[18].

وكان العسجدي[19] يقول كثيراً: "الصَّداقة مرفوضة[20]، والحفاظ معدوم، والوفاء: اسم لا حقيقة له، والرعاية موقوفة على البذل، والكرم قد مات، والله يحيى الموتى"[21].

وقوله هذا مبالغة في التشاؤم، وإن كان فيه وجه من صواب، فالصَّداقة ما زالت وإن كانت نادرة، والوفاء موجود وإن كان عزيزاً، والكرم لم يعدم والخير في أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

والإنسان بلا صديق في هذه الحياة كالغريب الذي لا يجد إنساناً يلجأ إليه بعد الله، ولا أدل على ذلك من قول الخليل: "الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال"[22].

ولا أريد الإطالة فيما قيل بشأن الصَّداقة والصَّديق، فالأقوال كثيرة، والأشعار وفيرة[23]، وحسبي ما ذكرت.

أما مادة: **(ص.ح.ب)** فقد وردت في سبعة وتسعين موضعاً في القرآن الكريم، وهي على النحو التالي:

1) وردت بلفظ المفرد المذكر ﴿وَٱلصَّاحِبِ﴾ في موضعين.

2) وردت بلفظ المفرد المؤنث ﴿صَٰحِبَةٌ﴾ في موضعين.

3) وردت بلفظ المفرد المذكر، مضافة إلى ضمير الغيبة ﴿صَٰحِبُهُۥ﴾ في ثلاثة مواضع.

4) وردت بلفظ المفرد المؤنث مضافة إلى ضمير ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ في موضعين.

5) وردت بلفظ المفرد مضافة إلى جماعة المخاطبين ﴿صَٰحِبُكُمْ﴾ في ثلاثة مواضع.

6) وردت بلفظ المفرد مضافة إلى جماعة الغائبين ﴿صَٰحِبُهُمْ﴾ في موضعين.

7) وردت بلفظ المثنى ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾ في موضعين.

8) وردت مجموعة مضافة إلى جماعة الغائبين ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾ في موضع واحد.

9) وردت مجردة عن الإضافة ﴿أَصْحَٰبُ﴾ في سبعة وسبعين موضعاً.

أما المواضع الثلاثة الباقية فوردت بلفظ فعل الأمر في موضع واحد ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾، وبلفظ الفعل المضارع في موضعين: ﴿تُصَٰحِبْنِى﴾ و﴿يُصْحَبُونَ﴾، وهذه المواضع الثلاثة لا علاقة للبحث بها، كما يتضح من عنوانه.

وقد تتبعت دلالة جميع هذه الكلمات في المؤلفات اللغوية بعامة، والمعاجم العربية بصفة خاصة، وكذلك في أغلب المؤلفات التي اختصت بتفسير كتاب الله عز وجل، مع الاستعانة بالمصادر والمراجع ذات العلاقة. والغاية من ذلك: محاولة الوصول إلى تحديد دلالة هاتين الكلمتين التحديد الدقيق لها، واستنتاج مدلولها من خلال السياق الذي وردت فيه.

قال ابن فارس عن مادة **(ص.ح.ب)**: "الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة شيء بشيء ومقاربته، من ذلك: الصَّاحب، والجمع: الصَّحْب"[24].

"والصُّحْبة: مصدر قولك: صَحِبَ يَصْحَب. وقال غيره: يقال: صاحب وأصحاب، كما يقال: شاهد وأشهاد، وناصر وأنصار، ومن قال: صاحب وصُحبَة فهو كقولك: فاره وفُرْهة... وقد أصْحَب الرَّجل: إذا كان ذا أصحاب، وأصْحَب: إذا انقاد. وقال أبو عبيد: صَحِبْت الرجل من الصُّحْبة، وأصْحَبت، أي: انقدت له... وكل شيء لازم شيئاً فقد استصحبه..."[25].

"وأصْحَب فلان: إذا كبر ابنه فصار صاحبه"[26].

وقال الراغب: "الصَّاحب: الملازم إنساناً كان أو حيواناً، أو مكاناً أو زماناً، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن – وهو الأصل والأكثر- أو بالعناية والهمَّة وعلى هذا قال:

لـــــئن غبـــــت عـــــن عـــــيني لمـــــا غبـــــت عـــــن قلـــــبي

ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته"[27].

"والصَّاحب مشتق من الصُّحْبة، وهي وإن كانت تعم القليل والكثير، لكن العرف خصَّها لمن كثرت ملازمته، وطالت صحبته"[28].

وممَّا قيل في الصَّاحب: "الصَّاحب كالرُّقعة في الثوب فالتمسه مشاكلاً"[29]. "كما

روى ابن قتيبة عن أبي حاتم عن الأصمعي عن أبيه قال: كان يقال: الصَّاحب رقعة في قميص الرجل، فلينظر أحدكم بم يرقع قميصه"[30].

الفرق الدلالي بين اللفظتين

يتضح لنا مماً سبق أن اللفظتين تشتركان في دلالة عامة –وهي: الرابطة بين الناس– وتفترقان في دلالة الجذر، فالأصل الدلالي لمادة (ص.د.ق) فيه دلالة على قوَّة في الشيء قولاً وغيره، والأصل الدلالي لمادة **(ص.ح.ب)** يدل على مقارنة شيء بشيء ومقاربته. فالأصل الدلالي في اللغة مختلف.

كما أن الصُّحْبة تعني: الملازمة لأي شيء: إنساناً أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً، وهذه الملازمة قد تكون دائمة كصحبة الوالدين، وقد تكون وقتية كصحبة يوسف عليه السلام للكافرين، أو صحبة العبد الصالح لموسى عليه السلام.

ويرى أبو هلال العسكري أنَّ "الصُّحْبة تفيد انتفاع أحد الصَّاحبين بالآخر، ولهذا يستعمل في الآدميين خاصَّة فيقال: صحِب زيد عمراً، وصحِبه عمرو. ولا يقال: صَحِب النَّجمُ النَّجمَ، أو الكونُ الكونَ، وأصله في العربية: الحفظ، ومنه يقال: صَحِبك الله، وسر مصاحباً، أي: محفوظاً، وفي القرآن ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَآ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾[31]، أي يحفظون. وقال الشاعر:

وصـــــــاحب مـــــــن دواعـــــــي الشـــــــر مصـــــــطحب"[32]

وبهذا تكون الصُّحْبة عامة، أما الصَّداقة فهي خاصة بالإنسان دونما سواه، قال الراغب: "والصَّداقة صدق الاعتقاد في المَودَّة، وذلك مختص بالإنسان دون غيره"[33].

كما أن الصَّاحب قد يكون ملازماً لك وهو عدوٌ، أو تكون صحبته مؤقتة لغرض من أغراض الحياة كما سبق، على حين أن الصَّديق لا تكون صداقته كذلك.

فالصَّداقة في رأيي هي مرتبة بين الخُلَّة و الصُّحْبة، بمعنى أن الصَّديق أعلى مرتبة من الصَّاحب، فكل صديق صاحب، وليس كل صاحب صديق. يؤيد ما ذهبنا إليه قول الغزالي: "والرابطة إما القرابة وهي أخَصُّها، أو أخوة الإسلام وهي أعمّها، وتنطوي في معنى الأخوة الصَّداقة والصُّحْبة... ولكل واحدة من هذه الروابط درجات..." إلى أن قال: "وكذلك الصَّداقة تتفاوت، فإنها إذا قويت صارت أخوة، فإذا ازدادت صارت محبة، فإذا ازدادت صارت خلَّة... فإذاً ليس قبل المعرفة رابطة، ولا بعد الخُلَّة درجة، وما سواهما من الدرجات بينهما"[34].

إذن فالدَّلالة المعجمية للفظتين مختلفة، سواء أكان في الأصل الدلالي أم في دلالات مشتقات المادة اللغوية، وكذلك الشأن في الدَّلالة الاصطلاحية لهما عند العسكري وغيره.

أما الدَّلالة الوظيفية الصرفية للكلمتين فكلمة صديق صفة مشبهة، مشتقة من الصِّدق، واسم الفاعل منه (صادق) ويستوي فيها التذكير والتأنيث، والإفراد والتثنية والجمع.

"ويرى النحاة أن الصفة المشبهة تدل على الثبوت، ومعنى الثبوت: الاستمرار واللزوم، أي: أنها تدل على أن الصفة تثبت في صاحبها على وجه الدوام نحو جميل وطويل وكريم"[35].

والصادق: من اتصف وأخبر بالصِّدق، وكان خبره مطابقاً للواقع، مما يحتمل الصدق والكذب.

ولو تأملنا الدَّلالة المعجمية السابقة لوجدنا أن الصَّداقة هي الصدق في المَودَّة، وصدق المَودَّة يراعى فيه الثبوت، ليس علاجياً ولا متنقلاً، فهو مختلف عن صدق الكلام. وإنما معنى الثبوت ملازم له، ومن ثم تكون (صديق) صفة مشبهة وليست من صيغ المبالغة، يؤيد هذا قول الراغب في أن الصَّداقة: - صدق الاعتقاد في المَودَّة - . وما ذكره علماء السلوك من أن الصَّداقة: "استواء القلب في الوفاء والجفاء...".

أما لفظة (صاحب) فعلى زنة فاعل بمعنى ملازم، وهي من الصيغ الخاصة إذ تختص بالملازمة، أي: أن دلالة الصيغة عامة في فعيل وخاصة في فاعل على عكس دلالة الكلمة، فهي خاصة في صديق وتدل على العموم في صاحب. ومادة **(ص.ح.ب)** لم يُشْتقّ منها صفة مشبهة. والسؤال هنا: لماذا لم يشتق من هذه المادة اللغوية هذه الصيغة ؟ وللإجابة عنه نقول: إن الغرض من الصفة المشبهة هو اللزوم والاستمرار، وهذا المدلول موجود في أصل المادة اللغوية، أو بمعنى آخر : أصل الجذر اللغوي يتضمن معنى الصفة المشبهة، فاستغنوا عن ذلك بدلالة الجذر الأصلي؛ لتضمنه معنى الملازمة فاكتفوا به عن معنى الصيغة، "وكل شيء لازم شيئاً فقد استصحبه"[36].

دلالة اللفظتين عند المفسرين

حدد القرآن الكريم دلالة اللفظتين تحديداً دقيقاً، كما راعى الدَّلالة في ضوء تنوع السياق الواردة فيه.

أولاً: دلالة الصَّديق

قال تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[37].

قال ابن كثير: "يعلمون والله أن الصَّديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع"[38]. وقال غيره: "الصَّديق الذي يصدق في المَودَّة، والصَّديق: الدائم التصديق"[39].

وقال الزمخشري: "كما نرى لهم أصدقاء (أي: للمؤمنين)؛ لأنه لا يتصادق في الآخرة

إلا المؤمنون. وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [40] ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [41] من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس... والحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من الحامة بمعنى: الخاصة، وهو الصَّديق الخاص. فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصَّديق ؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة، وقلة الصَّديق... وأما الصَّديق: وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك، فأعز من بيض الأنوق. وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصَّديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصَّديق الجمع"[42].

ويتضح لنا من خلال بيان الزمخشري لمدلول كلمة صديق الأمور التالية:

1) أن الصَّديق يأتي في المرتبة الثانية بعد الحميم.
2) أن الحميم من خاصة الأصدقاء وليس من عامتهم.
3) ندرة الأصدقاء الخاصين في العادة.
4) وصف الصَّديق بالحميم، والحميم في اللغة: الماء الحار، فيه دلالة على أن هذه الحرارة الحسية في الماء نقلت إلى الدَّلالة المعنوية، وهي العلاقة الحميمة بين الصَّديق وصديقه، فشبهت هذه العلاقة بالماء الحار، دلالة على رابطة الصَّداقة الصادقة، خاصة وأنه وصف الصَّداقة بالحميمية – والله أعلم- .

أما علة جمع الشافعين، وإتيان الصَّديق بالإفراد فلأربعة أمور كما وضحها العلماء:

1) لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصَّديق[43].
2) لأن الصَّديق الواحد يسعى أكثر ممَّا يسعى الشفعاء[44].
3) لإطلاق الصَّديق على الجمع كالعدو[45].
4) أريد أن يجري على وصف حميم في التنكير والتذكير والإعراب والوزن.

فأسلوب القرآن الكريم أسلوب بياني معجز، فلعلّ إتيان الصَّديق هنا بالإفراد لقلة الأصدقاء في ذلك اليوم، هذا جانب، والجانب الآخر هو هول ذلك اليوم وعظمة موقفه، لذا وقع الصَّديق في سياق النفي (بما) بمعنى لا شفاعة، ولذلك تمثل الزمخشري بقوله: (أعز من بيض الأنوق) ومعنى المثل أن الأنوق تبيض في رؤوس الجبال، ولا يكاد يوجد بيضها، لبعد مطلبه وعسره، أي أنه محال الوصول إليه، والإخبار هنا عن أهل النار.

قال الشوكاني: " ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أي: ذي قرابة، والحميم: القريب الذي توده

ويودك، ووحد الصَّديق لما تقدم غير مرة، أنه يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث. والحميم: مأخوذ من حامة الرجل، أي: أقربائه، ويقال: حمّ الشيء وأحمّ: إذا قرب منه، ومنه الحمي؛ لأنه يقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يحمي لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحمية"[46].

نلحظ أن الشوكاني هنا أتى للحميم بمعاني مختلفة وهي تندرج تحت معنى واحد مع فروق دقيقة بين الدلالات لا تتبين إلا من خلال السياق.

فمن هول الموقف وهيبته وعظمته، نرى أنهم لم يستشفعوا بآبائهم أو أمهاتهم، وهم أقرب الناس إليهم بل ولا بأصدقائهم، وفي هذا دلالة على قوة معنى الصَّديق.

وقال ابن عاشور: "فهو تتميم إثارة ما يلقونه من سوء المعاملة من كل ما يمرون به أو يتصلون، ومن الحرمان الذي يعاملهم كل من يسألونه الرفق بهم، حتى علموا أن جميع الخلائق تتبرأ منهم. فإن الصَّديق هو الذي يواسيك، أو يسليك، أو يتوجع، ويومئذ حقت كلمة الله: ﴿ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [47] والحميم: القريب(فعيل) من حَمَّ بفتح الحاء: إذا دنا وقرب، فهو أخص من الصَّديق. والمراد نفي جنس الشفيع، وجنس الصَّديق، لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكد بـ (من) الزائدة. في ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدَّلالة بشافعين جمعاً وبـ(صديق) مفرداً؛ لأنهم أرادوا بالشافعين: الآلهة الباطلة، وكانوا يعهدونهم عديدين، فجرى على كلامهم ما هو مرتسم في تصورهم، وأما الصَّديق فإنه مفروض جنسه دون عدد أفراده، إذا لم يعنوا عدداً معيناً فبقي على أصل نفي الجنس، وعلى الأصل في الألفاظ إذا لم يكن داع لغير الإفراد.

والذي يبدو لي أنه أوثر جمع شافعين؛ لأنه أنسب بصورة ما في أذهانهم... وأما إفراد صديق؛ فلأنه أريد أن يجري على وصف حميم فيه ثقل لا يناسب منتهى الفصاحة، ولا يليق بصورة الفاصلة، مع ما حصل في ذلك من التفنن الذي هو من مقاصد البلغاء"[48].

فالشفاعة ربما تكون منجية لأولئك في الدنيا، أما في الآخرة فلا شفيع لهم، ونفي الشفاعة أبلغ من نفي قبولها، والوصف بحميم هنا أعطى السياق قوة في الدَّلالة ومعنى هذا: أن صداقة الكفار لا تشفع لهم يوم القيامة، وإن كانت صداقتهم حميمة في الحياة الدنيا، لعدم ارتكازها على أساس ديني صحيح، مستمد من الكتاب والسنة، فلو كانت كذلك لوجدت مكانها في الدار الآخرة؛ لأن المتقين هم من تبقى صداقتهم، ولا تزول حتى بعد موتهم إذ تجدها مستمرة في الدار الآخرة.

أما الموضع الثاني الذي وردت فيه كلمة صديق فهي فيه مضافة إلى ضمير جماعة المخاطبين، وهو قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[49].

قال ابن كثير: "أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم، ولا يكرهون ذلك. وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه"[50] بمعنى أن بيت الصَّديق كبيتك.

وقد بين الزمخشري تفسير الآية بقوله: "والصَّديق يكون واحداً وجمعاً، وكذلك الخليط... يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه، وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك، وقال: هكذا وجدناهم. يريد: كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين ﷺ... وعن جعفر بن محمد... من عِظَم حُرْمة الصَّديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن..."[51].

على أن ابن عاشور وضح المدلول توضيحاً دقيقاً حيث قال: "الصَّديق هنا مراد به الجنس الصَّادق بالجماعة بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين ،وهو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليه إن كان وصفاً أو خبراً في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، وهو الأصل. والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة، قال تعالى ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[52] ومثله: الخليط والقطين.

والصَّديق فعيل بمعنى فاعل، وهو الصادق في المَودَّة، وقد جعل في مرتبة القرابة ممَّا هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء، وسئل أحد الحكماء: أي الرجلين أحب إليك: أخوك أم صديقك ؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقي"[53].

وفي هذا دلالة على أن الأخوة إذا اقترنت بالصداقة علت منزلتها، وإن افترقت عنها هبطت قيمتها. ومن هنا قيل: (ربّ أخ لك لم تلده أمك) أي: صديق لك.

وقد نزلت الآية "في مالك بن زيد وكان صديقه الحارث بن عمرو، فخرج الحارث غازياً وترك مالكاً يرعى أهله وعند رجوعه من غزوته وجد مالكاً مجهداً فقال له: ما أصابك ؟ فأجاب: لم يكن عندي شيء ولم يحل لي أكل مالك"[54].

وإذا تأملنا لفظة (صديقكم) نجدها مضافة إلى ضمير جماعة المخاطبين، أي (أصدقائكم)، وفي هذا دلالة على أنَّ القرآن عندما عبَّر في الآية الأولى بـ (صديق) مفردة، وآثر في الآية الثانية استخدام صديق مضافة إلى الضمير، أعطاه خصوصية استخدام اللفظ مفرداً، والإيحاء إلى حميمية الصَّداقة بمعنى أن بيت الصديق هنا كبيت الأب والأم وغيرهما.

ثانياً: دلالة الصَّاحب

سبق أن حصرنا المواضع التي وردت فيها كلمة (صاحب) سواء أكانت مفردة أم مضافة أم مثناة أو مجموعة. وسبيلنا الآن معرفة آراء المفسرين في تحديد دلالة هذه الكلمة.

قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾[55].

ممَّا نلحظه في التعبير المتسلسل للآية القرآنية أنها بدأت بالأساس الذي تبنى عليه كل الصلات، وهي الصلة بين العبد وربه، فعبادة الله وعدم الشرك به هي الركيزة الأساس، وما بعدها تابع لها، ثم قرن بذلك برَّ الوالدين والإحسان إليهما، وهذا لعِظم حقِّ الوالدين، لذا قُدِّما في الآية، ثم جاء في المرتبة الثالثة بذوي القربى ثم اليتامى والمساكين، إلى أن جاءت مرتبة الصَّاحب بالجنب، وهي الثامنة، وهذا التدرج الأسلوبي خصيصة من خصائص التعبير القرآني إذ لو قُدِّمت لفظة على لفظة أخرى لاختلت الآية. ومن هنا جاء الإعجاز حتى في وضع الكلمة في موضعها.

وكلمة الصَّاحب هنا مقيدة بالجار والمجرور (بالجنب) بكلمة الجنب، والمراد بالجنب: الملاصق، بمعنى: أنه ليس من عموم الأصحاب، بل الصَّاحب الملازم لك، كأن يكون رفيقاً في سفر، أو جاراً ملاصقاً، أو شريكاً في تعلم علم أو مهنة، أو جالساً بجوارك في مجلس أو مسجد، "أو غير ذلك من أدنى صحبة التَأَمَت بينك وبينه، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه، وتجعله ذريعة إلى الإحسان، وقيل: الصَّاحب بالجنب: المرأة"[56].

إلا أن بعض المفسرين[57] ذكروا أن الصَّاحب بالجنب هو من يلزمك رجاء نفعك، وأرى أن هذا المعنى أقرب في هذا الموضع؛ لأن الصَّاحب عندما يكون ملازماً لك لا بد أن يرجى منفعتك، أو ترجو أنت منفعته وهذا المعنى الدلالي سبق إلى القول به أبو هلال العسكري في نصه السابق[58] وقد عمم الراغب مدلول الكلمة في قوله السابق[59] إذ جعل الملازمة لأي شيء هي مصاحبة له، سواء كان إنساناً أو حيواناً مكاناً أو زماناً. وحدده ابن

كثير عن سعيد بن جبير بأنه الرفيق الصالح[60].

ونص الراغب ذلك يدل على نظرته إلى دلالة الكلمة مفردة، أي: مجردة عن سياقها، والكلمة: متى أدرجت في السياق تحدد مدلولها.

والملاحظ في الآية الكريمة أن مرتبة الصَّاحب بالجنب جاءت بعد مرتبة الجار، وفي هذا دلالة على أن الجار أقرب لجاره من صاحبه، ومعنى هذا أن رتبة الصُّحْبة تختلف عن رتبة الصَّداقة.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾[61]، معلوم أن المراد بصاحب الحوت هو يونس عليه السلام وقصته معروفة، وهذا اللقب لم يأت إلا بعد أن قذفه الحوت من جوفه، وملازمة يونس عليه السلام للحوت صحبة له؛ لأنه لازمه، وهذه الملازمة "معية قوية"[62] وهنا ينتفي قول أبي هلال أن الصُّحْبة تستعمل في الآدميين خاصة.

والخطاب موجه لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ إذ يقول له المولى عز وجل: لا تستعجل بعقوبة قومك كما استعجل يونس عليه السلام، ولا تغضب أو تتضجر، وهذا تذكير من الله له[63].

وإضافة كلمة (الصَّاحب) إلى الحوت على معنى اللام، وهذه الإضافة تفيد الاختصاص، أي: أن الأنبياء جميعاً ليس منهم من كان كيونس عليه السلام ملازماً للحوت، والمتأمل في الآية الكريمة يرى أن الله يرشد نبيه إلى مصاحبة قومه وملاينتهم حتى يعودوا لعبادة الله. والموضع هنا متعلق بالنهي عن معاداة النبي ﷺ لقومه ومحاولة كسبهم ومصاحبتهم.

أما كلمة صاحب مذكرة مضافة إلى ضمير الغيبة فقد وردت في ثلاثة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[64].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا ﴾[65]

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ ﴾[66]

ففي الآية الأولى يخاطب الرسول ﷺ أبا بكر الصَّديق رضي الله عنه، ومعلوم أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان الصَّديق الحميم لرسول الله ﷺ، ولم يعبر القرآن هنا بلفظة (صديقه)، ولعل المراد بالمصاحبة هنا الملازمة والمعية في السفر، وفي هذا "دليل على تحقيق صحبة الصِّدِّيق رضي الله عنه حيث سماه الله سبحانه وتعالى صاحبه، وعدّه ثانيه، وفي الإيمان ثانيه، وفي الغار ثانيه، ثم في القبر ضجيعه؛ وفي الجنة يكون رفيقه"[67].

وقال ابن عاشور: "والصَّاحب: هو ثاني اثنين، وهو أبو بكر الصِّدِّيق. ومعنى الصَّاحب: المتصف بالصُّحْبة، وهي المعيَّة في غالب الأحوال، ومنه سميت الزوجة: صاحبة... والمعيَّة هنا: معية الإعانة، والعناية".

وأرى أن الصَّاحب في هذا السياق أبلغ من لفظة الصَّديق، للأسباب التالية:

1) كون الله يعبر عن أبي بكر الصِّدِّيق في كتابه بأنه صاحب للمصطفى ﷺ، وهذا يعد شرفاً كبيراً لأبي بكر ﷺ. وقد بحثت في وصف أبي بكر ﷺ بالصاحب وليس الصديق إلا أنني لم أجد الإجابة الشافية فيه. ولعل المراد بها – والله أعلم – الملازم لرسول الله ﷺ في سفره.

2) فيه دلالة على أن أبا بكر ﷺ مقرب جداً للمصطفى ﷺ، يدل على ذلك: افتداؤه بنفسه في هذا الموقف.

3) صحبة أبي بكر ﷺ لرسول الله ﷺ ليست كصحبة غيره، "وفيه من الدَّلالة على علو طبقة الصِّدِّيق ﷺ، وسابقة صحبته ما لا يخفى"[68].

وعند تأمل دلالة هذه الكلمة في هذا السياق نلحظ أن لفظة الصَّاحب تطلق على الصَّديق إذا كان على دين ومنهج صاحبه. وإضافة (الصاحب) إلى الضمير هنا للعهد، أي: صاحبه الذي كان معه، وقد تخلى عن أهله إذ فارقهم، وكذلك جميع أقربائه وعشيرته، فخرج مع صديقه، وآثر هذه الصداقة على ما سواها، وهذه هي الصداقة الحقَّة.

أما الآيتان الثانية والثالثة فتدلان على أن الصَّاحب لا يلزم أن يكون مسلماً، فهذه صحبة بين مسلم وكافر جاحد بأنعم الله، وهذه الصُّحْبة غير دائمة فالكافر يتفاخر على المسلم ويجادله بغير حق، يتعالى ويستكبر لما امتلكه من مال وولد. والصَّاحب المؤمن يحاول رده إلى الطريق القويم، وذلك بحكم الصُّحْبة: يقول ابن عاشور: "والصَّاحب هنا بمعنى: المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به: الملابس المخاصم... والمراد بالصَّاحب هنا: الرجل الآخر من الرجلين..."[69]، وليس هناك من معاني الصاحب أن يكون المقارن في الذكر وإنما الصاحب يدل على ماهية ومعنى متحقق في الخارج، وليس ما يتحدث عنه النحويون من مراعاة اللفظ كأن يعطف متقدم في الرتبة أو في الخارج على متأخر عنه، ويقولون إن هذا ترتيب في الخبر. والضمير هنا يعود على المؤمن.

وقد وردت لفظة ﴿ صَٰحِبَةٌ ﴾ في ثلاثة مواضع، الأول: جاءت فيه مفردة منكرة، والثاني والثالث: جاءت فيهما مضافة ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾ وهذه المواضع هي:

1) قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [70].

2) وقوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [71]

3) وقوله تعالى: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [72].

وأجمع المفسرون على أن معنى الصَّاحبة هنا: الزوجة، ولكن هل المعنى واحد في السياقات الثلاث؟ والإجابة بالنفي؛ لأن التعبير القرآني مختلف تبعاً لاختلاف السياق، وموقع اللفظة نفسها فيه، وسميت الزوجة: صاحبة؛ لأنها مصاحبة للزوج في الحياة الدنيا في معظم أحواله، ففي الآية الأولى "جعل انتفاء الزوجة مُسَلَّماً؛ لأنهم لم يدعوه فلزمهم انتفاء الولد لانتفاء شرط التولد"[73]. كما أن "الصَّاحبة تقتضي المجانسة، والله تعالى منزه عن الجنس والنوع"[74]، وأرى أن هذه الكلمة لا تقتضي المجانسة، بل من الممكن أن تكون من غير الجنس.

فدلالة الكلمة في هذا السياق منتفية، فكيف يكون مبدع السماوات والأرض وما تحويه، بحاجة إلى زوجة أو ولد وهو خالق كل شيء ؟ فالله عز وجل ليس بحاجة لا لزوجة ولا لولد، والولد إنما يطلبه المحتاج، تعالى الله عن ذلك.[75] فالجزم بعدم وجود الصَّاحبة يترتب عليه عدم وجود الولد، فلعل الكفار سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك، واتخاذ الصَّاحبة والولد.

وفي الآيتين الثانية والثالثة يبين الله هول يوم القيامة وعظمة ذلك اليوم الذي تقطع فيه أواصر القرابة، من فزع يخلع القلوب، فالهول المروع قطع جميع الوشائج، يوم تبدل الأرض غير الأرض، وتصبح الجبال كالصوف المنفوش، أو كالفضة المذابة، كما قال ابن مسعود. في هذا الموقف لا يسأل خليل عن خليله، ولا حميم عن حميمه، عندها يود المجرم لو يفتدي من هذا العذاب بأعز ما عنده، ابتداء بالأبناء وهم أعز الناس عنده، ثم تليهم الزوجة، ثم عشيرته الأقربين، ولا يلتفت إليه أحد منهم في هذا الموقف لانشغالهم، فهو يتمنى أن يكون "هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات أن ينجيه"[76].

فإن قيل: لم قُدِّم الأبناء والصَّاحبة في الآية الثانية، وأُخِّرا في الآية الثالثة؟ فلعل السبب في تأخير الأبناء والصاحبة هو أن "المقام في (عبس) مقام الفرار والهرب، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴾ ،والإنسان يفر من الأباعد أولاً ثم ينتهي بألصق الناس به، وأقربهم إليه، فيكونون آخر من يفر منهم. والأخ أبعد المذكورين في الآية

من المرء وأن ألصقهم به زوجه وأبناؤه. فنحن ملتصقون في حياتنا بأزواجنا وأبنائنا أكثر من التصاقنا بإخواننا وآبائنا وأمهاتنا... فالأبناء آخر من يفر منهم المرء ويهرب. وهكذا رتب المذكورين في الفرار بحسب العلائق، فأقواهم به علاقة هو آخر من يفر منه..."[77]

فكأن التعبير القرآني يشير إلى فرار الإنسان من أخيه، ثم قال: بل ليس الفرار من الأخ فحسب بل من أقرب منه، وهم الأم والأب، ثم قال: بل ويفر الإنسان من أعز الناس إليه وأقربهم منه، وهما: الأبناء والزوجة[78].

والذي أراه أن الألفاظ: (أخيه، أمه، أبيه، صاحبته، بنيه) مؤخرة في اللفظ لا المعنى، ففي هذا اليوم يكون المرء منشغلاً "بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه، أو للحذر من مطالبتهم بما قصر في حقهم، وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة"[79].

أما سياق الآية في (المعارج) فيختلف عن السياق في (عبس) فالموقف يوم القيامة مختلف، فهذا المجرم سيقذف في النار، والمجرم لا يبالي أن يفتدي بأقرب الناس إليه، وأقرب الناس إليه أبناؤه وزوجته، فقدمهم بغية النجاة، فبدأ بأقرب الناس إلى قلبه، وفي هذا دلالة على شدة الموقف والمشهد وهولهما، والهول هنا "نفسي بحت يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ويسبد بها استبداداً"[80].

فالسياق يوضح مشهداً "من مشاهد العذاب الذي لا يطاق، فقد جيء بالمجرم ليقذف به في هذا الجحيم المستعر، وهذا المجرم يود النجاة بكل سبيل، ولو أدّى ذلك إلى أن يبدأ بابنه فيضعه في دركات لظى، فرتب المذكورين ترتيباً آخر يقتضيه السياق، وهو البدء بالأقرب إلى القلب، والأعلق بالنفس"[81].

ثم عبر بالفعل (يَفِرُّ) بمعنى أن الموقف لا يحتمل التأخر، فالفرار هنا من شيء مخيف، والتعبير بالفعل المضعف (فرَّ) للدلالة على هول الموقف، فناسب هذا الموقف تضعيف الفعل، وهذه المرحلة التي وصل إليها المرء هي مرحلة يأس. ووصف ابن منظور هذا الهروب "بأنه هروب يصحبه روغان، ومنه قيل: فرس مِفَرّ: يصلح للفرار عليه"[82].

على أن بعض المفسرين يرى أن سر هذا الترتيب يتضمن "فائدة وهي أن هذا مثل يضرب في حق الأقرب فالأقرب رؤية واتصالاً ومعرفة. والمراد بالأخ :التوأم، فإنه يراه الجنين في بطن أمه قبل كل أحد، ثم أمه بعد الولادة، ثم أباه، ثم صاحبته، ثم بنيه"[83]. وهذا الرأي في نظري بعيد؛ لأن تفسير الأخ بالتوأم فيه نأي.

وقد وردت كلمة صاحب مثناة في موضعين من سورة يوسف عليه السلام :

الأول: في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [84].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [85].

وفي كلا الآيتين النداء للصاحبين اللذين في السجن، والإضافة هنا "إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب؛ وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق، فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما صحبا الصدق، ولكن كما تقول: رجلا صدق، وسميتهما صاحبين؛ لأنهما صحباك. ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [86]"[87].

والمراد – والله أعلم – أنهما ملازمان السجن ومصاحبان له فيه. والنداء هنا للخباز والساقي[88] أي لاثنين فحذفت النون للإضافة، والمنادى هنا منصوب بالياء، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين، وهذا معنى قول الزمخشري: إن الإضافة هنا للسجن وليست للمتكلم، أو أن المعنى "يا صاحبيّ فيه، فأضافهما إليه على الاتساع"[89].

وفي كلا الآيتين وقع لفظ (صاحب) منادى، إلا أن النداء في الآية الأولى دعوة إلى توحيد الله، وعدم الإشراك به، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر. أما في الآية الثانية فإجابة طلبهما منه تعبير الرؤية.

فهذه صحبة مؤقتة اقتضتها الحال التي هي فيها، فتنتفي هنا في هذا السياق دلالة الصُّحْبة التي تعني الملازمة.

أما لفظة ﴿ أَصۡحَٰبُ ﴾ فقد وردت في القرآن الكريم في سبعة وسبعين موضعاً وكلها بالإضافة إلى ما بعدها عدا موضع واحد، فوردت مضافة إلى النار في عشرين موضعاً، ومضافة إلى الجنة في أربعة عشر موضعاً، ومضافة إلى الجحيم في ستة مواضع، ومضافة إلى اليمين في ستة مواضع أيضاً، ومضافة إلى الأيكة في أربعة مواضع، وإلى السعير في ثلاثة مواضع، وإلى المشأمة في ثلاثة مواضع، وإلى الميمنة في ثلاثة مواضع، وإلى الشمال في موضعين، وإلى الرّس في موضعين، وإلى مدين في موضعين، أما بقية المواضع فلم ترد إلا مرة واحدة مضافة إلى: السبت، والفيل، والأعراف، والحجر، والأخدود، والقبور، والقربة، والصراط، وموسى، والكهف، والسفينة، كما وردت مرة واحدة مفردة غير مضافة.

قال الكفوي: "كل ما في القرآن من أصحاب النار، فالمراد: أهلها إلاَّ ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [90] فالمراد: خزنتها"[91].

وقد تتبعت دلالة هذه اللفظة تتبعاً دقيقاً، فوجدت أن الإضافة فيها لها دلالتها الخاصة بها، أي أن الإضافة إلى ما بعدها أعطت الكلمة قوة في الدَّلالة، وقد تخيرت بعض السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة لأبين من خلالها تحديد الدَّلالة وقوتها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ [92].

قال القشيري: "إنما يضاف العبد إلى ما كان الغالب عليه ذكره، والأخذ بمجامع قلبه، فصاحب الدنيا: من في أسرها، وأصحاب الجنة: هم طلابها والساعون لها، والعاملون لنيلها... وقيل: إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين، فيقول لهم الله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو، لا تشغلهم الجنة عن أنس القرابة، و راحات الوصلة، والفراغ للرؤية. أو يقال: بل إنما يقول لأهل الجنة ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المعاينة إجلالاً لهم. يقال: الشيخ يفعل كذا، ويراد به: أنت تفعل كذا"[93].

وقال البيضاوي: "متلذذون في النعمة من الفكاهة. وفي تنكير: شغُل وإبهامه، تعظيم لما فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى ما تحيط به الأفهام، ويعرب عن كنهه الكلام"[94].

ونلحظ في الآية الكريمة أن كلمة (أصحاب) سبقت بـ(إن) المؤكدة ثم أضيفت إلى الجنة، أي: يتلذذون بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. ثم جاء بكلمة (شغل) نكرة، وفي هذا التنكير زيادة قوة في الدَّلالة، إذ يدل على التفخيم لدرجة أن أهل الجنة شُغِلوا حتى عن "أهاليهم من أهل النار، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم، لئلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم"[95].

فالتأكيد الذي صُدِّرت به الآية، ثم الإضافة، ثم تنكير كلمة شغل، أعطت كلمة (أصحاب) معنى دلالياً أقوى مما لو كانت مفردة. فمتى أدرجت الكلمة في السياق حكم على مدلولها وحدد التحديد الدقيق.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [96].

يقول ابن عاشور: "تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة، على عادة القرآن، والمراد بالخلود هنا حقيقته"[97].

وكذلك ورد جزء الآية في الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [98] وقال ابن عاشور في بيانها: "ودلّ قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ على قصر ملازمة الجنة عليهم. وجملة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ حال من اسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [99].

التعبير هنا بالجملة الاسمية فيه دلالة على أنهم ملازمون لها لا ينفكون عنها، وكما هو معلوم أن الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرار وهما من عوامل التوكيد. ثم عبر باسم الفاعل (خالد) للدلالة على الثبات في الجنة.

وقد عبر القرآن أيضاً عن المشركين بأصحاب النار في المواطن السابقة، وأغلب المواضع صدرها باسم الإشارة (أولئك) إذ يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [100].

وقال تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [101]. اخترت هذين الموضعين لاختلاف سياق الآيتين وفي كليهما وردت لفظة (أصحاب).

أما الآية الأولى فما قيل في التحليل السابق يقال هنا، إلاّ أنَّ أولئك مخلدون في الجنة ونعيمها، وفي هذه الآية مخلدون في النار وجحيمها على الدوام.

وفي الآية الثانية بيان لحالة معينة، ألا وهي قصة هابيل وقابيل ابني آدم عليه السلام عندما قتل قابيل هابيل والقصة معروفة. والسؤال هنا: هل يكون قابيل من المخلدين في النار ؟ والإجابة عن هذا – والله أعلم – أن المعنى "ممَّن يطول عذابه في النار؛ لأن أصحاب النار هم ملازموها" [102].

1) قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [103].

2) وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [104].

3) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [105].

قال ابن عاشور في بيان الآية الأولى: "فإن الصَّاحب هنا بمعنى الملازم، ولذلك فصلت جملة (فيها خالدون) لتنزلها من الأولى منزلة البيان فبينها كمال الاتصال" [106].

وقال القشيري: "والذين قابلوا النعمة بغير الشكر، وغفلوا عن التصديق والتحقيق، فلهم عذاب أليم مؤجل وفراق معجل" [107]. وفي الآية الثانية: "قصر إضافي لقلب اعتقادهم" [108].

وفي الآية الثالثة: "قصر ادعائي؛ لأنهم لما كانوا أحق الناس بالجحيم وكانوا خالدين

فيه جعلوا كالمنفردين به، أو هو قصر حقيقي إذا كانت إضافة أصحاب مؤذنة بمزيد الاختصاص بالشيء كما قالوه في مرادفها..."[109].

وقد بين بعض المفسرين[110] دلالات الصَّاحب في القرآن الكريم وعدَّها في ثمانية أوجه فقال: "تفسير الصَّاحب على ثمانية أوجه: الساكن، القوم، الرفيق، النبي ﷺ، الأخ، الزوجة، الخزنة، الأبوان.

فوجه منها: _الأصحاب وهم السُّكان، قوله تعالى قفي سورة البقرة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [111] يعني: سكان النار، ومثله في سورة الأعراف:﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ [112] يعني: سكان الجنة...

والوجه الثاني: _الأصحاب يعني: القوم، فذلك قوله تعالى في سورة الشعراء﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [113] يعني قومه وأمته، ونحوه كثير.

والوجه الثالث: _الصَّاحب: الرفيق؛ قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ [114] يعني الرفيق في السفر، كقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ﴾ [115] أي: فلا ترافقني، وكقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ ﴾ [116] أي: لرفيقه أبي بكر الصَّديق رضي الله عنه.

والوجه الرابع: الصَّاحب، يعني: النبي ﷺ، قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [117] يعني: وما نبيكم...، ومثله في سورة النجم: ﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [118] يعني: نبيكم.

والوجه الخامس: الصَّاحب يعني: الأخ، قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ [119] يعني: أخاه، ومثله فيها: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [120] يعني: أخاه.

والوجه السادس: الصَّاحبة: الزوجة، قوله تعالى في سورة عبس: ﴿ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [121] يعني زوجته، كقوله في سورة الأنعام: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ [122].

والوجه السابع: الأصحاب، يعني: الخزنة، قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ [123] يعني خزنة النار، ولا نظير له.

والوجه الثامن: الأصحاب يعني: الأبوين في بعض التفاسير هما أبو بكر وزوجته، قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ [124] يعني: الأبوين"[125].

وزاد ابن عاشور وجهاً تاسعاً يتمثل في قوله "ويطلق مجازاً على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر"[126]

والملاحظ أن الدامغاني بيَّن المعنى التفسيري لهذه الألفاظ، وهذا التفسير ليس لغوياً؛ لأنه ليس من مدلولات الصاحب في اللغة: النبي ولا الخازن، ولا الأبوين، ولا الأخ ولا الساكن. وبيان المفسرين للصاحب بالنبي أو بمحمد ﷺ فالمراد به: أنه صاحبهم الذي عرفوه، وعاش معهم وبينهم قبل النبوة فكان ملازماً لهم. والسياق هو الذي حدد المقصود.

وكذلك الشأن في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي سكانها. ومن المفسرين من ذكر بأن معنى أصحاب هنا: أهل، وهذا المعنى في رأيي أقرب؛ لأن النصوص النثرية والشعرية الواردة عن العرب تؤيد ما ذهبنا إليه فلم يعبر عن الأهل بالسكان.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥ﴾ فليس من المعهود أن تستخدم كلمة الصاحب للأب أو الأخ في كلام العرب، ولكن المفسرين نظروا إلى أسباب النزول لآيات القرآن الكريم، ولا شك أن السياق هو الفيصل في تحديد دلالة الكلمة التحديد الدقيق لها. ولفظة أصحاب يتضح مدلولها بحسب ما تضاف إليه.

كما ورد لفظ (صاحب) مضافاً إلى ضمير جمع المخاطبين في موضعين:

الموضع الأول: ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [127].

بين هاتين الآيتين جلّ المفسرين، ودلالتهما جلية، فالخطاب موجه للمشركين حينما قالوا: "إن محمداً مجنون، وساحر، وأشباه هذا من خرصهم، فقال الله جل وعز لنبيه محمد ﷺ قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي أن تنصحوا لأنفسكم، ولا يميل بكم هوى عن حق، فتقوموا لله وفي ذاته مقاماً يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه، فيقول له: هَلُمّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جنة قط؟ أو جربنا عليه كذباً فهذا موضع قيامهم مثنى. ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيكفر وينظر ويعتبر، فهذا موضع قيامهم فرادى فإن في ذلك ما دلّهم على أنه نذير"[128].

وذكر بعضهم "أن جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه، مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل، بأن هذا الأمر العظيم والدعوى الكبيرة لا يعرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه... وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً فوجب أن يصدقوه في دعواه"[129] ولهذا وُقِف على قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾. وربما تكون (ما) استفهامية[130] في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ بمعنى: أي شيء رأيتموه فيه يدلّ على الجنون؟

ومن المفسرين من قال بأن (ما) ليست استفهامية بل نافية، أي: لنفي صفة الجنون عن

رسول اللهﷺ. وأرى أن (ما) في هذا السياق استفهامية، أما أن تكون نافية فإن قومه متيقنون من أنه ليس غاوياً ولا مجنوناً بل كان حكيماً راجح العقل، فما دور النفي؟ وقد فصل الزمخشري معنى الآية بما فيه كفاية[131].

الموضع الثاني: ـقوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [132].

أما هذه الآية فالخطاب – كما هو واضح – لقريش، والمعنى: أن محمد ﷺ كما عهدتموه راشداً، حكيماً، صاحب رأي، علاوة على ما يتصف به من صدق وأمانة، فهل أصبح اليوم غاوياً عندما جاءكم بالبينات ؟ وهنا وقعت الآية جواباً للقسم. والمراد نفي ما نسب إليه؛ لأن (ما) هنا نافية. قال القشيري: "ما ظل صاحبكم ولا غفل عن الشهود طرفة عين"[133]. فأطلق لفظ الصَّاحب هنا، والمراد منه الملازم لهم لأنهم قومه وعشيرته، وهم أدرى الناس بحاله ﷺ، ويعلمون بأنه على طريق الحق والهدى.

كما جاءت كلمة صاحب مضافة إلى ضمير جمع الغائبين في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [134].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [135].

ففي الموضع الأول بدأ الآية الكريمة باستفهام إنكاري، إذ يستنكر عليهم عدم التأمل والتفكر في شأن محمد ﷺ وما جاء به من الهدى والحق. ثم أعقب هذا الاستفهام باستفهام آخر يتمثل في (ما)، فإن كانت كذلك فالاستفهام له الصدارة، وعندها تعرب في محل رفع مبتدأ والخبر ﴿بِصَاحِبِهِم ﴾.

ومن المفسرين من عدَّ ما: نافية، واسمها: من جنة، والخبر: ﴿بِصَاحِبِهِم ﴾. ودلالة السياق: ليس بصاحبهم أو الملازم لهم شيء ممَّا يَدّعونه من الجنون، يُؤيِّد هذا آخر الآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾أما جنة فهي مصدر، والمعنى: "أي وقع منهم التكذيب، ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلاً، وقولهم زوراً وبهتاناً"[136].

قال ابن عاشور عند تفسيره للآية: "والصَّاحب: حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفر أو نحوه، ومنه قوله تعالى ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ﴾ [137] وسُمّيت الزوجة صاحبة، ويطلق مجازاً على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر تنزيلاً لملازمة الذكر ملازمة الذات، ومنه قول الحجاج في بعض خطبه لأهل العراق: (ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر، واستبطنتم الكفر) يريد: أنهم الذين قاتلوه بالأهواز. فمعنى كونهم أصحابه أنه كثر اشتغاله بهم..."[138].

فتصدير الآية بالاستفهام، ثم يليه الفعل (يتفكروا)، والتضعيف هنا له دلالته الإضافية على السياق، ثم يعقبه باستفهام أو نفي على رأي بعض المفسرين، كل هذه قرائن تزيد الدَّلالة توضيحاً وبياناً. ثم إن الضمير هنا الذي يعود عليه ﷺ أفاد معنى الملازمة والرفقة والقرابة؛ لأنه ﷺ منهم وابن عشيرتهم، وهم أدرى الناس به قبل البعثة وبعدها.

أما الموضع الثاني فقد تصدرت الآية فيه بـ[إن] التوكيدية، ثم أعقبها باسم الموصول المسبوق باللام – وهذا زيادة في التأكيد – تلا ذلك التعبير بالفعل الماضي (ظلموا) مسنداً لواو الجماعة، وفي هذا إشارة إلى الأمم المشركة السابقة، ثم أضاف ضمير الغيبة لجمع القلة (أصحاب) لمطابقة معنى المضي مع ضمير الغيبة. وهذا التوافق يعد غاية الدقة في الاستعمال القرآني.

ثم أتى بفظ مستعار وهو قوله: ﴿ ذَنُوبًا ﴾، وأصل الذنوب في اللغة: الدلو، فكانوا يستقون الماء، فيكون لهذا ذنوب، ولهذا ذنوب، فاستعير في موضع النصيب، وقال الشاعر:

إنـــــا إذا نازعنـــــا شـــــريب لنـــا ذنـــوب ولـــه ذنـــوب (139)

ولعل فيما قدمنا تجلية لدلالة الآية المتمثل معناها الإجمالي في أن هؤلاء المشركين "سينالون نصيباً من العذاب في الدنيا مثل نصيب أصحابهم في الشرك..."(140).

ومعلوم أن المراد بهم الأقوام السابقة كقوم عاد وثمود ولوط وغيرهم من الأمم الذين عصوا واستكبروا.

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن كلمتي صاحب وصديق تعدان من المتباين، وليستا من الترادف في شيء سواء أكان ذلك عند اللغويين، أو عند المفسرين، وإن اشتركتا في المعنى العام لهما، إلا أن كل كلمة لها دلالتها الخاصة بها. فالصُّحْبة شيء، والصَّداقة شيء آخر.

فدلالة الصَّاحب لا تستوعب في خصوصيتها دلالة الصَّديق. كما أن اللغويين من أصحاب المعاجم وغيرهم لم يفسروا الصَّديق بمعنى الصَّاحب ولا العكس، مع أنهم في الغالب ساووا بين دلالتي الخُلَّة والصَّداقة، إلا أن أبا هلال العسكري في تعريفه السابق للصديق قال: "فإذا أضمر كل واحد من الرجلين مودة صاحبه..." ولم يقل (صديقه)، وهو كما نعلم من العلماء الذين كتبوا في الفروق. وربما كان هذا من باب التعريف بالصَّديق وليس من باب أنهما بمعنى واحد.

وعند بيانه لدلالة (صدق) المعجمية قال: "والصَّداقة والمُصَادقة: المُخَالَّة"(141). إلا أن أبا زيد قال: "والصَّحيح أن يقول: إن معناه (أي الخليل): الصَّفِيُّ المَودَّة"(142).

يقول الجوهري: "والخليل: الصَّديق، والأنثى خليلة"(143). وقال ابن منظور: "الخُلَّة:

الصَّداقة،... والخلّ: الوُدُّ والصَّديق، والخليل: الصَّديق، فَعِيل بمعنى مُفاعِل، وقد يكون بمعنى مفعول. والخُلَّة: الصَّديق، الذكر والأنثى، والواحد والجميع في ذلك سواء"[144].

وكذلك الشأن بالنسبة للمفسرين فأكثرهم يرون ما أقره اللغويون من أن (الخُلَّة: المُخَالّة، وهي الصَّداقة)[145] وإن حدد بعضهم دلالة الخُلَّة بأنها كمال المحبة[146] أو بالصَّديق المخلص[147].

وبهذا ندرك الفرق بين هذه الدلالات، لاسيما إذا انتظمت في سياق يبينها ويزيدها خصوصية، ويمنحها تفرداً ينأى بها عن مجرد الترادف. وقد أدرك هذا اللغويون، والمفسرون، والأصوليون، وبينوا ذلك في مؤلفاتهم[148].

مما سبق اتضح لنا أن هاتين اللفظتين من الألفاظ التي ارتبطت بالحياة الاجتماعية عند المسلمين عامة، والعرب بشكل خاص، يدل على ذلك ما ورد في مؤلفاتهم من نصوص سمت بدلالة الكلمتين.

وقد خلص البحث إلى نتائج من أهمها :

1) أن لفظة (صديق) من الألفاظ المشتركة التي يستوي فيها التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع.

2) اشتراك اللفظتين في دلالة عامة تتمثل في الرابطة القوية بين الناس وافتراقهما في دلالة الجذر، فالصحبة عامة، والصداقة مختصة بالإنسان دون غيره.

3) لفظة صديق: صفة مشبهة، تدلّ على الثبوت على وجه الدوام، كطويل وكريم. أما لفظة (صاحب) فأصل الجذر يتضمن معنى الصفة، لذا فلم يصاغ منه على زنة فعيل.

4) أن لفظتي الصديق والصاحب ليستا من الألفاظ المترادفة، فالصداقة أعلى مرتبة من الصحبة.

5) إدراك اللغويين والمفسرين أهمية السياق بنوعيه: اللفظي والاجتماعي ودوره في تحديد الدلالة الدقيقة لكل من اللفظتين.

6) اهتمام علماء العربية ببيان مدلول اللفظتين وتدوين ما قيل فيهما من أشعار وأمثال وحكم تجسد القيمة التعبيرية لهما.

وبعد: فهذا ما اتضح لي في هذه الدراسة اللغوية من فرق دلالي بين الكلمتين، فإن أصبت فما ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى، وإن أخطأت فحسبي أنني اجتهدت قدر المستطاع في تلمس الحقيقة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش:

1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ، ص55.

2) صفاء الكلمة في التعبير القرآني د/ عبد الفتاح لاشين، ص3.

3) أدب الصُّحْبة والمعاشرة للغزالي، ص316- 317.

4) الزخرف.67

5) الصداقة والصَّديق (و).

6) الشعراء: 100- 101.

7) النور: 61

8) مقاييس اللغة 339/3- 340، واللسان (صدق)، والصَّداقة والصَّديق، ص94.

9) لسان العرب (صدق)، وينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، 315/1- 316.

10) الألفاظ لابن السكيت، ص467.

11) في المطبوع (أضر)، وهو تحريف. وكذلك كلمة (مضار) لعلها إضمار لتتناسب مع السياق.

12) الفروق ص277- 278.

13) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص480.

14) الكليات 111/3.

15) كشاف اصطلاحات الفنون 259/4.

16) السابق 259/4.

17) الصَّداقة والصَّديق ص70.

18) السابق ص66.

19) أحمد بن محمد العسجدي، أديباً فاضلاً متواضعاً ومتديناً، يعرف أسماء الكتب، وطبقات الأعيان، كان عالماً مفيداً، اعتنى بتحرير الحديث وضبطه، توفي سنة 758هـ. ينظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 269/1.

20) أي: متروكة.

21) الصَّداقة والصَّديق 14.

22) ربيع الأبرار 248/1.

23) للمزيد ينظر: الصَّداقة والصَّديق، وعيون الأخبار 3/3، وربيع الأبرار 248/1.

24) مقاييس اللغة 335/3.

25) تهذيب اللغة 262/4.

26) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص476.

27) السابق ص475، وقارن الكليات 112/3.

28) الكليات 112/3.

29) عيون الأخبار 3/3.

30) البصائر والذخائر لأبي حيان ص33.

31) الأنبياء.43

32) الفروق لأبي هلال، ص277- 278.

33) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ، ص480.

34) أدب الصُّحْبة والمعاشرة ص315- 316.

35) شرح الكافية 82/2، ومعاني الأبنية ص65.

36) تهذيب اللغة 262/4.

37) الشعراء: 100- 101

38) تفسير ابن كثير 339/3- 340.

39) النظم المستعذب 207/1.

40) الزخرف: 67.

41) الشعراء: 100- 101.

42) الكشاف 401/4- 402.

43) الكشاف 401/4- 402.

44) أنوار التنزيل 159/2.

45) الكشاف 401/4- 402، وأنوار التنزيل 159/2.

46) فتح القدير 107/4.

47) الزخرف.67

48) تفسير التحرير والتنوير مجلد (9) 155/18.

49) النور: 61.

50) تفسير ابن كثير 305/3، وينظر: الزاهر في معاني كلام الناس.

51) الكشاف 324/4- 425.

52) الشعراء: 100- 101.

53) تفسير التحرير والتنوير 302/18.

54) تفسير مقاتل 209/3.

55) النساء: 36

56) الكشاف 74/2. وينظر الصحاح للجوهري (جنب).

57) فتح القدير 465/1، غرائب التفسير 296/1.

58) ينظر الفرق بين الدلالتين ص8.

59) ينظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص476.

60) الوجوه والنظائر لألفاظ كاب الله العزيز ومعانيها للدامغاني، ص473- 475.

61) القلم: 48.

62) تفسير التحرير والتنوير 104/14- 105.

63) ينظر الكشاف 192/6، فتح القدير 276/5، تفسير القشيري 187/6.

64) التوبة: 40.

65) الكهف: 34.

66) الكهف: 37.

67) لطائف الإشارات 28/3.

68) تفسير أبي السعود: 168/3.

69) تفسير التحرير والتنوير 319/7 و 321/7. وينظر فتح القدير 83/3 وتفسير مقاتل 585/2.

70) الأنعام: 101.

71) المعارج: 11- 14.

72) عبس: 34- 36.

73) تفسير التحرير والتنوير 411/4.

74) غرائب التفسير 378/1.

75) ينظر الكشاف 381/2 بتصرف. وتفسير القشيري 195/6- 255.

76) الكشاف 206/6، وتفسير مقاتل 427/4، وتفسير التحرير 161/14، وأنوار التنزيل 526/2.

77) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص143.

78) الكشاف 318/6.

79) أنوار التنزيل 570/2.

80) في ظلال القرآن 3834/6.

81) لمسات بيانية في نصوص التنزيل ص144.

82) لسان العرب (فرر)

83) غرائب التفسير 1310/2.

84) يوسف: 39

85) يوسف: 41.

86) الحشر: 20.

87) الكشاف 285/3، وينظر تفسير ابن كثير 27/3.

88) تفسير مقاتل 334/2، ولطائف الإشارات 189/3.

89) أنوار التنزيل 484/1.

90) المدثر: 31.

91) الكليات 188/1.

92) يس: 55.

93) لطائف الإشارات 224/5.

94) أنوار التنزيل 284/2.

95) الكشاف 183/5- 184.

96) البقرة: 82.

97) تفسير التحرير 4/

98) الأعراف: 42.

99) تفسير التحرير والتنوير 130/5.

100) الأعراف: 36.

101) المائدة: 29.

102) تفسير التحرير والتنوير 172/4، وينظر السابق 111/5.

103) البقرة: 39.

104) البقرة: 81.

105) الحج: 51.

106) تفسير التحرير والتنوير 446/1.

107) تفسير التحرير والتنوير 581/1.

108) لطائف التفسير 95/1.

109) السابق 137/4.

110) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها للدامغاني ص473- 475.

111) البقرة: 39.

112) الأعراف: 44.

113) الشعراء: 61.

114) النساء: 36.

115) الكهف: 76.

116) التوبة: 40.

117) التكوير: 22.

118) النجم: 2.

119) الكهف: 34.

120) الكهف: 37.

121) عبس: 36.

122) الأنعام: 101.

123) المدثر: 31.

124) الأنعام: 71.

125) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها لأبي عبد الله للدامغاني ،ص473- 475.

126) تفسير التحرير والتنوير 194/5.

127) سبأ: 46.

128) تأويل مشكل القرآن ص312- 313، وقارن: فتح القدير 334/4.

129) فتح القدير 334/4، وغرائب التفسير 940/2.

130) فتح القدير 334/4، وأنوار التنزيل 265/2.

131) الكشاف 130/5.

132) النجم: 2.

133) لطائف الإشارات 47/6، وينظر أنوار التنزيل 438/2.

134) الأعراف: 184.

135) الذاريات: 59.

136) فتح القدير 271/2.

137) يوسف: 41.

138) تفسير التحرير والتنوير 194/5، وينظر: لطائف الإشارات 287/2، وغرائب التفسير 429/1، والكشاف 536/2، وفتح القدير271/2.

139) تأويل مشكل القرآن ص150.

140) تفسير مقاتل 134/4، وينظر الكشاف 622/5، وأضواء البيان 678/7، وفتح القدير 93/5.

141) السابق (صدق).

142) المخصص مجلد (13) الجزء (12) ص244.

143) الصحاح (خلل).

144) اللسان (خلل).

145) إصلاح الوجود والنظائر ص164.

146) البرهان 127/1.

147) الوجوه والنظائر للدامغاني ص308.

148) ينظر على سبيل المثال: إصلاح الوجوه والنظائر ص164.

المصادر والمراجع

1- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، الطبعة الثالثة، 1370هـ 1951م.

2- أدب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق للإمام الغزالي، دراسة وتحقيق : د/محمد سعود المعيني، مطبعة العاني، بغداد.

3- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين المختار الشنقيطي، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، 1403هـ : 1983م.

4- الألفاظ لابن السكيت، وقف على طبعه الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1895م.

5- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، بتحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، 1376هـ 1957م.

6- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق : د/ إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء، دمشق.

7- تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره / السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، دار التراث، القاهرة، 1393هـ : 1973.

8- تفسير البيضاوي، المسمى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي ناصر الدين أبي سعيد البيضاوي، الطبعة الأولى، منشورات : محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

9- تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

10- تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

11- تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق : د/عبد الله محمد شحاتة، الطبعة الأولى، مؤسسة التأريخ العربي، بيروت، 1423هـ 2002م.

12- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق / عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

13- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري، تحقيق ودراسة د/ عبد المجيد دياب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

14- الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق : د/ حاتم صالح الضامن، دار الرشيد للنشر، 1399هـ 1979م.

15- شرح الكافية لرضي الدين الاستراباذي، مطبعة الشركة الصحافية العثمانية، 1310هـ.

16- الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الأولى، مطابع دار الكتاب العربي بمصر.

17- الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، شرح وتعليق / علي متولي صلاح، المطبعة النموذجية بمصر، الطبعة الأولى.

18- صفاء الكلمة في التعبير القرآني، للدكتور / عبد الفتاح لاشين، القاهرة، 1983م.

19- عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م.

20- فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، الطبعة الثانية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1383هـ : 1964.

21- الفروق، لأبي هلال العسكري، الطبعة الثانية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1977م.

22- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر.

23- كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد علي التهانوي، حققه الدكتور / لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972م.

24- الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله أبي القاسم محمود الزمخشري، تحقيق وتعليق / عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض.

25- الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، قابله د/ عدنان درويش ومحمد المصري، الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1981م.

26- لسان العرب، لابن منظور، طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

27- لطائف الإشارات، للقشيري، قدم له وحققه : د/ إبراهيم بسيوني، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة.

28- المخصص، لأبي الحسن علي بن سيده، مطبوعات دار الفكر، بيروت.

29- معاني الأبنية في العربية، د/ فاضل صالح السامرائي، الطبعة الثانية، دار عمار للنشر، 1428هـ : 2007م.

30- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه / محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، 1407هـ : 1987م.

31- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق / رضوان داوودي، الطبعة الثالثة، دار القلم، دمشق، 1423هـ : 2002م.

32- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق / عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، 1389هـ : 1969م. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر.

33- النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب، لبطال بن أحمد الركبي، دراسة وتحقيق : د/ مصطفى سالم، 1408هـ : 1988م. المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

34- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها، لأبي عبد الله الدامغاني، دارسة وتحقيق : فاطمة يوسف الخيمي، الطبعة الأولى، مكتبة الفارابي، سوريا، دمشق، 1419هـ : 1998م.